

أدوات الحرب الناعمة

الدكتور حجت الله مرادي

يحمل بعض المفاهيم والكلمات أحياناً تغييرات جذرية في النمط الفكري. ومن جملة هذه المفاهيم مفهوم الحرب الناعمة والتهديد الناعم. فهذا المفهوم لا يشير فقط الى ظهور أساليب جديدة في النضال أو ظهور تحولات سياسية وأمنية جديدة، بل يشير الى ما هو أبعد من ذلك، ففي الواقع يدل على ظهور مدرسةٍ جديدةٍ في مجال الصراعات والنزاعات على المستوى الدولي، إذ يروّج التحولات السياسية والاجتماعية في كلّ مدةٍ من الزمن مفهوماً جديداً في الأدبيات السياسية والإستراتيجية للمجتمعات ويُصبح هذا المفهوم محور نقاشات ومباحثات المحافل النخبوية والمتقفة.

ونفهم من خلال التأمل في نقاشات وأدبيات الحرب الناعمة عدم وجود إجماعٍ مفهومي ووضوح في المعنى حول هذا المفهوم. ولكن رغم ذلك، يمكن تشخيص أربعة اتجاهات كحدٍ أدنى بين مجموعة هذه الأدبيات:

الاتجاه الأول: التهديد الناعم هو بمثابة العمليات النفسية للعدو ضد الرأي العام المحلي . انطلاقاً من هذا الاتجاه يعتبر التهديد الناعم مساوياً لمجموع الحملات النفسية- الدعائية لدولةٍ ضد دولةٍ أخرى.

الاتجاه الثاني: يعادل التهديد الناعم الإجراءات المخفية والتأمرية للأجهزة الأمنية المعادية ضد المجتمع ؛ وهكذا فإنّ التهديد الناعم عبارة عن مجموعة العمليات المخفية المنقّذة من قبل الأجهزة الاستخباراتية.

الاتجاه الثالث: ينظر هذا الاتجاه الى التهديد الناعم على أنّه استهداف الأسس الذهنية والاعتقادية لنظام سياسي من قبل المحافل المثقفة أو سائر المراجع الفكرية والمؤسسات الثقافية.

الاتجاه الرابع: يتم تلقي التهديد الناعم على أنّه تلك الاضطرابات الاجتماعية الواسعة والتي تهدف الى الإطاحة بنظامٍ سياسيّ .

ومع وجود اختلاف النظر في هذا التقييم المفهومي لهذه الاتجاهات الأربعة، يمكن القول إنّ جميعها عاجزة عن تناول كافة جوانب الموضوع، وهذا ما يُقيي السؤال التالي على قوته: بناءً على أي أساسٍ نظري وأيّ مؤشراتٍ كمية قابلة للقياس العلمي يمكن بناء الإطار المفهومي للحرب الناعمة والعناوين المدرجة تحتها؟

ومن خلال نظرةٍ إجمالية وأولية الى ظاهرة التهديد الناعم، يمكن تصور نموذج من أربعة أركان؛ حيث إنّ أهم الأركان المقوّمة لماهية الحرب الناعمة هي: التغيير السياسي، التخطيط، العنصر الخارجي، الهدف والأدوات. ولا يخفى أنّ هذا النموذج لا يُلغي العوامل المؤثرة الأخرى، لكن يبدو أنّ الاركان الأربعة المذكورة من أهم العوامل.

وكذلك يبدو أنّ أهم ركن يمكن أن يكون أصلاً مهماً في تشخيص ظواهر مثل التهديد الناعم والحرب الناعمة هو الهدف النهائي للظاهرة. ويمكن تلخيص هذا الهدف في عبارة "التغيير السياسي". لكن ليس بالضرورة أن يكون المقصود من "التغيير السياسي" ما يرمي إليه بالدقة أصحاب الرأي في علم الاجتماع السياسي، بل إنّ المقصود أكبر من ذلك. بيان آخر، يمكن جعل هدف لاعبي الحرب الناعمة في نقطة التقاء طرفي سلسلة حيث يشكّل الطرف الأول تغيير السلوك والطرف الثاني انهيار النظام السياسي. ولهذا السبب إنّ إطلاق عنوان الثورة الملوّنة على هكذا ظواهر غير صحيح. وتوضيح إدعائنا، علينا الالتفات الى مفهوم التغيير السياسي بمعناه الخاص في أدبيات علم الاجتماع السياسي ومفهوم إعمال النفوذ وتغيير السلوك في أدبيات العلاقات الدولية.

يعتبر بعض أصحاب الرأي في علم الاجتماع السياسي أنّ التغيير السياسي معادلٌ للتغيير في ترتيبات القدرة الحاكمة على المجتمع. ويقسمونها الى أربع مجموعات كلية. ويتشكّل أساس هذا التقسيم من عناصرٍ مثل نوع وميزان مشاركة المشاركين في الأيديولوجيا والمثل السياسية العليا.

1- الانقلاب العسكري: يمكن أن تُطلق على المجموعة الأولى من التغييرات اسم المؤامرات المنظمة، ويُقصد بذلك التغييرات المخطط لها بدقة مثل الانقلابات العسكرية حيث يقوم من خلالها عدد من النخب، وغالباً ما يمتلكون أيضاً القدرة السياسية، بتغيير السلطة الحاكمة دون اللجوء الى القوى الشعبية.

2- وتُسمى المجموعة الثانية بالاضطراب. ويُقصد به الاضطرابات والاعتراضات الاجتماعية، وتتمتع بأقل نسبة من التنظيم، والقيادة والأيديولوجيا.

3- ويمكن تسمية المجموعة الثالثة بالثورة، وهي تعني الحركات السياسية التي تقوم بتغيير النظام السياسي القائم عبر الاعتماد على أيديولوجيا أو أي أهداف سياسية عليا، وكذلك على شرائح المجتمع، وتكون متمحورة حول قائدٍ أو عدة قادة.

4- وأخيراً يمكن الإشارة الى مجموعة مطوية تحت عنوان الانتفاضات، وهي تركيبٌ من خصائص الانقلاب العسكري والثورة؛ أيّ أنّها تجمع بين تنظيم وتخطيط الانقلابات وكذلك تعتمد على شرائح المجتمع والاستفادة من القوى الاجتماعية.

ويقرب التهديد الناعم من الثورات نتيجة تأكيده على التعبئة الاجتماعية. لكن وجود خصائص مثل التخطيط التأمري والسعي لأجل التدخل العمدي في تغيير الجماعات الاجتماعية يجعلها تتمايز عن الثورات. لذلك نرى أنّ التهديد الناعم يقرب الى الانقلابات العسكرية بسبب اتصافه بعنصر المؤامرة وكذلك تبعيته في إجراء التغييرات المفاجئة، رغم أنّ

هكذا ظاهرة تظلّ متمايزة أيضاً عن هذه الانقلابات لسعيها الاستفادة من الجماعات الاجتماعية الغاضبة وكذلك التدخل العمدي والظاهر للرأي العام والعقل الجمعي.

لذلك نظراً الى ما ذكرناه حول أنواع التغييرات السياسية، فإنّ التهديد الناعم يسعى الى تحقيق هدفٍ يوازي التغيير السياسي بمعنى تغيير ترتيبات السلطة الحاكمة على المجتمع. لكن كل ما ذكر يشكّل طرفاً من التغيير السياسي ، والطرف الآخر هو القيام بالتعديل السلوكي للدولة. ويبدو أنّ التأكيد على هذه الخصيصة مهمّ جداً، لأنّها تفتح نافذة جديدة لمعرفة ظاهرة التهديد الناعم. وهذا أيضاً ما يجعلها متمايزة عن التغييرات السياسية بمعنى التحولات الداخلية الصرفة. وهذا يشير الى ذلك العنصر الخارجي لدى التهديد الناعم. وتُبدّل هذه الخصيصة ظاهرة التهديد الناعم الى موضوعٍ على مستوى السياسة الدولية والعلاقات الخارجية. بناءً على ما تقدّم، بدلاً من أن يتمّ بذل الجهد لتعريف التهديد الناعم بصفته تغييراً داخلياً وجعله في عداد تحولاتٍ مثل الانقلاب العسكري أو الثورة، ينبغي إعادة تعريف هذا المصطلح في سياق السياسات الاستعمارية وسعي دولةٍ ما في التدخل وإعمال نفوذها في سلوك الدولة المنافسة أو الأمور الداخلية لها. (قسم دراسات الحرب الناعمة، 1388، ص7-11)

ماهية الحرب الناعمة

تعني الحرب الناعمة في الثقافة السياسية الاختيار من الداخل. وفي الحقيقة تشمل كل أنواع الإجراءات النفسية والدعائية الإعلامية التي تستهدف مجتمعاً ما أو جماعةً ما، وتجر منافسها الى حالة الانفعال أو الهزيمة دون الحاجة الى الاقتتال العسكري وفتح النيران. إذ تلعب الحرب الناعمة دوراً في إضعاف الحلقات الفكرية والثقافية للمجتمعات من خلال استهداف فكر وثقافة الشعوب. انطلاقاً من ذلك، يعتقد بعض الخبراء أنّ وسائل الإعلام وأفلام الكتاب هي أهم أداة في هذه المواجهة الخفية. فالمجموعات المستهدفة في الحرب الناعمة هي القادة، والنخب وعامة الناس. وتشكّل النخب القوى الوسطى لهذه الحرب، ويمكن أنّ يُطرحوا بصفنتهم متخذي القرار أو صنّاع القرار في أيّ دولةٍ كانت. إذ تستطيع نخبة المجتمع المدني مثل قادة الأحزاب من خلال تردددهم الذهني أن ينقلوا خوفهم الى أذهان الناس، وأن يوجدوا جواً من الرعب بينهم، وبالتالي القضاء على معنوياتهم. انطلاقاً من ذلك، يستهدف العدو دائماً هذه الفئة لأنّ إيجاد التحول والنفوذ الفكري لدى النخب يؤدي بشكلٍ تلقائي الى الانحراف الفكري لدى الكثير من الناس. وهكذا يوفّر العدو على نفسه دفع الكثير من التكاليف. والجامعيون هم من المجموعات المستهدفة دائماً من قبل العدو لما تتمتع به هذه المجموعة من حماس وحركة، حيث تتمتع بخصائص خاصة كالشباب والمستوى العلمي وأثر كلامهم واتساع انتشار حضورهم الجغرافي، فتشكّل جهازاً دعائياً مناسباً للعدو، مضافاً الى أنّها توفر أيضاً دفع التكاليف عليه.

وفي الواقع، إنّ الحرب الناعمة في مقابل الحرب الصلبة تشمل أيّ نوع من الإجراءات النفسية والدعاية الإعلامية في استهدافها المجتمع أو الجماعة المعادية لها. وهي تضطر منافسها من خلال هذا النوع من الحرب الى أن ينجر نحو

الانفعال أو الانهزام. وتعتبر الحرب الكمبيوترية، والإنترنتية، والإبادة الناعمة، وتشغيل شبكات إذاعية وتلفزيونية من أشكال الحرب الناعمة. فالحرب الناعمة تسعى إلى تحطيم عقيدة وفكر المجتمع المستهدف وتضعف عراه الفكرية والثقافية وتشيع تدريجياً التزلزل وعدم الاستقرار في النظام السياسي - الاجتماعي الحاكم من خلال القصف الحبري والدعائي.

وفي هذا المجال، نرى مارك بالمر¹ في تقريره "إيران - أمريكا، الوجهة الجديدة" يخالف بصراحة فكرة الهجوم العسكري على الجمهورية الإسلامية الإيرانية ويعلن أنّ إيران قد تحوّلت إلى قدرة لا نظير لها من خلال ما تمتلكه من أراضي شاسعة، وعدد سكان مرتفع، ونوعية في القوى البشرية، وإمكانات عسكرية، وثروات طبيعية وموقع جغرافي ممتاز في منطقة الشرق الأوسط ووزن على المستوى الدولي، بحيث إنّه لم يعد بالإمكان قلب نظامها عبر الاحتلال العسكري؛ بل إنّ الطريق الوحيد لقلب النظام في الجمهورية الإسلامية الإيرانية هو اتباع آليات الحرب الناعمة والاستفادة من تقنيات العمليات النفسية الدعائية. وقد قام بالمر بتعريف هذه الإستراتيجية التي سُميت بـ"دلنا" القائمة على ثلاث تقنيات: أصل الكبح، الحرب الإعلامية وتنظيم ودعم العصيان المدني، والآن يقوم الأمريكيون بنفيها.

تصنيفات الحرب الناعمة

قامت مجموعة من الباحثين عبر دراسة الحركة التاريخية لنشأة وتطور أنواع الحروب بتصنيف الحروب من حيث قوتها، وأشكالها وأدواتها المستخدمة في الوصول إلى أهدافها وإعمال القدرة. وهم يعتقدون أنّ التعرف إلى الحرب الناعمة ومجالاتها ومصاديقها يقتضي دراسة الحركة التاريخية لنشأة الحروب أو، بعبارة أخرى، دراسة الحركة التاريخية لتطور أنظمة السلطة. فمن وجهة نظرهم، يمكن الإشارة إلى ثلاثة مقاطع تاريخية قامت فيها الأنظمة السلطوية بفرض إرادتها على العالم لتأمين مصالحها وأهدافها الحيوية، وهي كالتالي:

1- الاستعمار القديم (مرحلة التهديدات الصلبة)؛

2- مرحلة الاستعمار الحديث (مرحلة التهديدات النصف صلبة)؛

3- مرحلة الاستعمار ما بعد الحديث (مرحلة التهديدات الناعمة)

¹ - أحد الاستراتيجيين المشهورين في أمريكا، إذ يُشار إليه بصفته أحد مبدعي السياسة الخارجية الأمريكية. عمل بالمر في وزارة الخارجية في عهد حكم نيكسون، كارتر، ريغان وبوش. وهو الآن عضو هيئة الخطر الحالي التي تأسست على أثر هجمات الحادي عشر من سبتمبر سنة 2001، مضافاً إلى عمله في قسم الأبحاث لمركز السياسة الخارجية سابان في مؤسسة بروكينز.

بناءً على هذه المراحل، يشير هؤلاء الباحثون إلى أنّ ماهية واستراتيجية السلطة كانت متفاوتة عبر التاريخ، وأنّه في كل مرحلة كانت تُستخدم مصاديق، وأدوات وطرق مختلفة في فرض الإرادة وتأمين المصالح بما يتناسب مع الأهداف والمصالح والظروف.

يشير منصورى (1386) على سبيل المثال، إلى مرحلة الاستعمار ما بعد الحديث بصفتها مرحلة الحرب الناعمة أو مرحلة الحروب السياسية- الثقافية. ويقسم أحمدديان وعباسى (1385) الحروب من حيث ماهيتها وحركتها التاريخية إلى ثلاثة أنواع: الحروب الصلبة، الحروب النصف صلبة والحروب الناعمة. ويعرّف عباسى الحرب الصلبة بأنها عبارة عن أعمال القدرة العسكرية لفرض الإرادة وتأمين المصالح. ويكون الهدف في هذا النوع من الحروب احتلال الأراضي. إذ تعتمد الحرب الصلبة على الطرق والأساليب المادية، الملموسية "الصلبة" وتكون مترافقة مع أفعال وسلوكيات عنفية، وإبادة ظاهرة، وإلغاء دفاعي واحتلال وضّم للأراضي. ويرتبط ظهور هذا النوع من الحروب بمرحلة الاستعمار القديم حيث يقوم النظام السلطوي بفرض إرادته وتأمين مصالحه من خلال الاحتلال العسكري، والقتل والسيطرة على الأراضي وضّمّها (إيجاد مستعمرات ومستملكات).

أما الحرب النصف صلبة فهي عبارة عن أعمال قدرة النظام السياسي- الأمني من خلال السيطرة على الدولة والسياسة في بلد ما بهدف فرض الإرادة وتأمين المصالح. الهدف في هذا النوع من الحروب هو احتلال الدولة والمجال السياسي. تعتمد الحرب النصف صلبة على استخدام النظام الاستخباراتي- الأمني واختراق الدول بحيث تكون أساليبها تركيبية (صلبة - ناعمة). ويرتبط ظهور هذا النوع من الحروب بمرحلة الاستعمار الحديث حيث يقوم النظام السلطوي عملياً بالسيطرة على نظام الدولة والسياسة في بلد ما عبر الاستفادة من القدرة الأمنية ومن دون اللجوء إلى العسكرية والاحتلال الفيزيائي للأراضي. وهكذا يفرض هذا النظام السلطوي إرادته ويؤمّن مصالحه.

وأخيراً، الحرب الناعمة وهي عبارة عن أعمال إرادة ومصالح النظام السلطوي من دون اللجوء إلى الصراع بل من خلال احتلال الأفكار والنماذج السلوكية لكافة جوانب بلد ما في مختلف المجالات الاجتماعية. فالهروب الناعمة تعتمد على الأساليب الناعمة، غير المحسوسة والتدرجية. ويتمّ هذا النوع من الحروب دون صدور أيّ ردة فعل فيزيائية ويعتبر نوعاً من الاحتلال المتعدد الجوانب، غير المرئي والثابت. ففي هذه الحرب يتمّ احتلال كامل لساحات اجتماعية مختلفة (ثقافية واقتصادية وسياسية) عبر فرض ثقافة، وفكر وسلوكيات النظام السلطوي. في الواقع، إنّ هدف الحرب الناعمة هو "الشعب"، في حين كان هدف الحرب الصلبة "الأراضي" وهدف الحرب النصف صلبة "الدولة". بناءً عليه، تتعلق الحرب الناعمة بمرحلة الاستعمار المابعد حديث أو مرحلة عولمة الثقافة. (انظر، النائبي، 1388)

وتعتبر مجموعة ثانية من الباحثين أنّ العولمة مرادفة للحرب الناعمة. والعولمة من المفاهيم التي أثّرت بكافة المجالات الاجتماعية في الثمانينيات تقريباً. وقد قدّمت تعاريف وتعابير مختلفة حول هذا المفهوم وظهر الكثير من الآراء والنظريات من قبل علماء الاجتماع والثقافة والسياسة والعلاقات الدولية. حيث ركّزت كل مجموعة من هؤلاء على

جانِبٍ من جوانب عملية العولمة وتناولت خلفياتها، وأبعادها، وآثارها ونتائجها. على هذا الصعيد، يعرف غيدنز عملية العولمة بأنها ليست سوى نشر الحدائث والثقافة الديمقراطية - الليبرالية. كذلك يشير ماركس وانجلز الى أن إدراك تاريخ العولمة وبداية هذه العملية يستلزم إدراك ومعرفة تاريخ الرأسمالية. لأنه من وجهة نظرهما تعمل الرأسمالية دائماً على توحيد الاقتصاد والثقافة العالمية. (تاميلسون، 1381) إذن، بالالتفات الى هذا الاتجاه، يجب اعتبار العولمة وليدة "الرأسمالية"، و"التغرب" و"الاتحاد" و"توحيد المعلومات والاعتقادات" وفي النهاية "أسلوب الحياة المشترك". ويعتقد هؤلاء الباحثون أنّ ظاهرة العولمة تُعتبر تقييداً بالنسبة للدول الضعيفة واللاعبين المنفعلين على الساحة الدولية. فهذه العملية نوع من السلطة الجديدة. وهكذا يتم تلقي الدول التي تتمتع بقدرة ناعمة عالية، على أنّها "تهديد" للدول المنافسة لها. كما أنّه من وجهة نظر "جوزيف ناي" المنظر للحرب الناعمة، فإنّ الدولة الواحدة لثلاثة أنواع من الجاذبية على صعيد "الثقافة" و"الفكر السياسي" و"السياسة الخارجية"، تستطيع التأثير في ثقافة الدول الأخرى وسياساتها ونماذجها الاجتماعية والسياسية، وأن تفرض إرادتها بشكلٍ غير مباشر عليها. بناءً على ما تقدّم، العولمة عبارة عن عملية مخطّط لها (مبرمجة)، مفروضة لأجل إعادة بناء المجتمعات على المستوى الدولي؛ وهي نظامٌ يهدف الى تبليغ وفرض الإيديولوجيا النيوليبرالية (الليبرالية الجديدة) الرأسمالية الغربية وفي صدد إشاعة نموذج الحياة الغربية (وبالاحص الأمريكية).

بناءً على ما ذكر، يعتقد هؤلاء الباحثون أن العولمة مشروعٌ مخطّط له من قِبَل مراكز السلطة بهدف فرض نموذج سلوكي معيّن، شمولي ذي اتجاه واحد، ويؤدي الى سيطرة الثقافة والقيم الغربية وجعل الآخرين في حالة انفعالٍ. كما وأنّ للعولمة آثاراً ونتائج عدة من جملتها انهيار الدولة - الشعب، وتحول النموذج الحكومي والسلوك السياسي، والمخاطرة بالهويات القومية - الدينية، وتسلب النظام الليبرالي - الديمقراطي، وظهور وانتشار ثقافة عالمية واحدة. (انظر، النائبي، 1387)

انطلاقاً من هذا الاتجاه، يمكن القول إن عملية ومفهوم العولمة يتطابق مع ماهية الحرب الناعمة، بما أنّه أسلوب للسيطرة ومترافق مع ماهية عولمة الثقافة والنموذج السلوكي لليبرالية الديمقراطية، ويشتمل على كافة الأبعاد السياسية والثقافية والاقتصادية ويُقلل من سعة وقدرة وميزان فعالية ومشروعية واعتبار الدول الوطنية.

وهناك من يعتقد من الباحثين أنّ وظيفة الثورات الملوّنة مترادفة مع وظيفة الحرب الناعمة. دون أدنى شك، إنّ "الثورات المخملية" أو الثورات الملوّنة هي أحد أساليب الإلغاء التي تتبعها الحرب الناعمة وهي تشمل نوعاً من تحول وانتقال القدرة بالتوافق مع عصيان مدني ومقاومة سلبية. والمسألة المهمة التي يجب أن نلتفت إليها ترتبط بالسعي نحو تبديل الثورات المخملية الى نموذج لتغيير البنى السياسية في الدول المخالفة للغرب وخصوصاً أمريكا. وهذا ما نراه في نوع التحول والتغيير، إذ إنّ ما يدعى بالثورات الملوّنة تشترك في الأسباب وأشكال التحول. فجميعها (ما عدا قرقيزستان) انتصرت من خلال تظاهرات الشارع دون اللجوء الى استخدام العنف، وشعاراتها كانت المطالبة بالديمقراطية والليبرالية، وثقل تحركاتها كان أثناء إجراء الانتخابات حيث كان يُشاع وجود تزوير فيها وضرورة إبطالها وإعادتها تحت إشراف مراقبين دوليين. لذلك نعتبر أنّه من الصحيح النظر الى الثورات الملوّنة بصفتها نوعاً من الحرب الناعمة كنظرية عولمة

الثقافة التي تسعى الى التقليل من اتساع السلطة ، وميزان الفعالية، ومشروعية واعتبار الحكومة وتآزم النموذج السياسي الموجود والنظام المستقر. لكن من وجهة النظر هذه، تقتصر الحرب الناعمة على الحرب السياسية الناعمة عبر تنظيم الحركات المعارضة في السياق المدني مثل الانتخابات. وهذا الأمر. لا يجعل الحرب الناعمة تشمل كافة الأبعاد وبالخصوص البعد الثقافي لها والذي يترافق مع تحولات تدريجية.(النائبي،1388)

ويلاحظ في العقود الأخيرة ظهور عدة خصائص مشتركة في بنية نظام السلطة وهي كالتالي:

1. ضرورة تحديد النظر في الأسس التقليدية للعلاقات الدولية والدراسات البحثية الأمنية .
 2. تُعتبر الثقافة الركيزة الأساسية للتحولات السياسية والدولية. وقد أصبحت البيئة السياسية للنظام الدولي ثقافية، يرافقها نوع من الوحدة من جهة، والتنوع من جهةٍ أخرى.
 3. لقد ظهر في عصرنا الحاضر لاعبون جدد ذوو هوية ثقافية وهم يؤثرون على النظام الدولي حيث تختلف إدارتهم عن المبادئ السابقة.
 4. تعتبر البرمجة الناعمة وبعبارة أخرى الثقافية مؤشراً للأفكار الجديدة وتلعب دوراً أساسياً في التحولات الاجتماعية .
 5. تلعب القوة الناعمة في الاتجاهات الجديدة دوراً مصيرياً في تشكّل العالم الحاضر والمستقبل.
 6. تتفق كافة الآراء والنظريات على دخول العالم الى مرحلة جديدة، رغم اختلافها في تفاصيل وخصوصيات هذه المرحلة. لكنّ تعتبر شبكة العلاقات وعمولة المعلومات تحت ما يُسمى بعمولة الثقافة أو الاستعمار ما بعد الحداثة (الحديث)، هو الأكثر تطابقاً مع مفهوم الحرب الناعمة وأبعادها المختلفة.
- ونرى اليوم أنّ استراتيجية المواجهة ومحورية العنف المتمركزة حول الإجراءات العسكرية في النظام الدولي، قد حلّت مكانها استراتيجية الحرب الناعمة والقوة الناعمة.

السابقة التاريخية للحرب الناعمة

أنشئت هيئة "الخطر الحالي" في السبعينيات وفي أوج الحرب الباردة، وكانت تضم مجموعة من سيناثورات الأمريكيين، ومسؤولي المناصب العليا في وزارة الخارجية، وأساتذة العلوم السياسية البارزين، ومؤسسة "امريكن اينتربرايز" للدراسات ومجموعة من مدراء الاستخبارات الأمريكية المركزية والبتناغون السابقين ومن ذوي الخبرة. وكان الهدف من تأسيس هذه الهيئة الخروج من الطريق المسدود الذي أوجده التوازن النووي بين الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوفياتي السابق. وقد قام أعضاء هذه الهيئة بعد اعترافهم بأنّ السبيل الوحيد لهزيمة العدو ليس في الحرب الصلبة، بالتخطيط وإجراء

الحرب الناعمة والإلغاء من الداخل. وقد أشاروا الى أنّ اعتماد "نظرية المحو، والحرب الإعلامية، وتنظيم العصيان المدني" من أهم استراتيجيات الحرب الناعمة في تلك المرحلة. بعد انهيار الاتحاد السوفياتي، عُثقت أعمال هذه الهيئة لعقدٍ من الزمن. ولكن بعد حادثة الحادي عشر من أيلول، اجتمع عددٌ من أعضاء هذه الهيئة وتمّ تفعيلها بعد تحليل الفرص والتهديدات القائمة في وجه الولايات المتحدة الأمريكية. وإحد الإجراءات التي قامت بها هذه الهيئة من جديد تدوين إستراتيجية الأمن القومي لأمريكا في العلاقة مع إيران لمدة أربع سنوات دولة بوش.

بشكلٍ عام، يمكن القول إنّ ماهية التهديد الذي برز بعد انهيار الاتحاد السوفياتي، تهديدٌ ناعم وتهديداتٌ معيارية وثقافية. فمن وجهة نظر المنظرين الغربيين الجدد، يشكّل العالم الإسلامي ونمو الإسلام السياسي فيه، بصفته الخطاب الغالب في الشرق الأوسط، التحديّ الأساس للبرالية الديمقراطية. في هذا الإطار، وطبقاً لتقرير هيئة "الخطر الجاري" فيما يخص كيفية مواجهة الجمهورية الإسلامية الإيرانية، يمكن القول إن الوقوف بوجه نمو الميل نحو الإسلام، العمق الإستراتيجي لقوة العالم الإسلامي الناعمة في مقابل قوة العالم الغربي الناعمة، يشكّل القسم الأهم من مضمون وثيقة استراتيجية الأمن القومي الأمريكي البديلة لإستراتيجية الوقوف بوجه النفوذ السوفياتي. انطلاقاً من هذا الاتجاه، يعتبر تهديد الأمن القومي لأمريكا تهديداً ناعماً، غير متوازن ومركّب حيث تمّت الإشارة الى أنّ مصدره الدول والأنظمة الضد أمريكية وغير الليبرالية في الشرق الأوسط.

خصائص الحرب الناعمة

تتمتع الحرب الناعمة بالكثير من الخصائص المتنوعة بسبب تعقيدها واعتمادها على القدرة الناعمة، وأهم هذه الصفات والخصائص ما يلي:

1- تهدف الحرب الناعمة الى تغيير القوالب والأنماط الماهوية للمجتمع والبناء السياسي. في هذه الحرب، تُستهدف الاعتقادات، والمسلمات، والقيم الأساسية لمجتمعٍ ما وذلك لأجل تغييرها. ومع تغيير الاعتقادات الأساسية، يُصبح بالإمكان تغيير قوالب التفكير وتحلّ نماذج سلوكية جديدة بدلاً من القديمة. وتقوم هذه النماذج السلوكية الجديدة بكسر البنى السياسية الموجودة بدلاً من حمايتها.

2- الحرب الناعمة تدريجية، وهادئة وغير ظاهرة. فهي ليست دفعية، ومتسعة وكثيرة التحرك في مرحلةٍ محددة. بل تبدأ بهدوء وتتقدم تدريجياً بحيث إنّ أحداً لا ينتبه إليها ولا يستطيع تشخيصها. وهي غير ظاهرة، لذلك فهي غير ملموسة.

- 3- تقوم الحرب الناعمة على الرمزية. تستفيد الحرب الناعمة من الرموز التاريخية لتقدم صورةً مطلوبة حول نفسها. ففي هذه الحرب، يُبذل الجهد في تصوير المنافس على أنه مهزوم، وآيس ومكسور. في المقابل يُظهر المهاجم نفسه عبر الرمزية منتصراً وموفقاً. يتم استخدام العمليات النفسية بحدها الأقصى في هذه الخصيصة.
- 4- في حال كانت الحرب الناعمة موفقة وناجحة، فإنّ نتائجها أكثر ثباتاً واستمراريةً. كما ذكرنا إنّ الهدف الأصلي للحرب الناعمة هو تغيير الاعتقادات والقيم؛ وإذا حصل ذلك فإنّ العودة الى الحالة الأولى لن يكون سهلاً ميسراً. مقياساً بالحرب العسكرية، عند احتلال أرضٍ، يمكن تحريرها في ظرف عدة ساعات. لكن إذا نجح الأعداء في السيطرة على أفكار وقلوب المجتمع فلا يمكن بسهولة إسترجاعها بل يحتاج ذلك الى مرور وقتٍ طويل.
- 5- الحرب الناعمة أكثر تحركاً وجاذبية. فالحرب الناعمة التي تبدأ بشكلٍ تدريجي وهادئ، ولكي تزيد من جاذبيتها الكاذبة، تستهدف في مرحلةٍ ما نفس المجتمع لتحقيق أهدافها وهكذا تزيد من نطاق تحركاتها. في الواقع، يتحول الكثير من الأفراد مع مرور الوقت الى هدفٍ لمديري الحرب الناعمة، سواءً شاؤوا ذلك أم لم يشاؤوا.
- 6- تعتمد الحرب الناعمة على الاستثارة. إذ يتم الاستفادة من عواطف وإحساسات المجتمع المستهدف بأقصى الحدود وذلك عبر الرمزية، والأسطورية وخلق قيمٍ جديدة. وهكذا تُعدّ إدارة العواطف ركناً في هندسة الحرب الناعمة. حيث تُبذل الجهود لاستخدام عواطف الناس بصفقتها جسراً للنفوذ الى الأفكار لإيجاد التغيير والتحول في الاعتقادات. وهكذا توفّر العواطف من حيث إنّها مثيرة ومحركة للإنسان الأرضية المناسبة لظهور الأزمات.
- 7- تتمركز الحرب الناعمة حول الانحرافات والآفات. إذ تُشكّل الآفات الاجتماعية والثقافية والاقتصادية والسياسية ساحة مناورة للحرب الناعمة. فينظم العدو أنشطته وفعالياته عبر تشخيصه لبؤر آفات المجتمع المستهدف في المجالات المذكورة، ويوسّع من نطاق تحركه من خلال إيجاد انحرافات وآفات جديدة.
- 8- الحرب الناعمة متعددة الوجود والميادين، فهي تستفيد من كافة العلوم والفنون والطرق والأساليب المعروفة والقيم الموجودة.
- 9- توجد الحرب الناعمة التضاد والخلافات. تبدأ الحرب الناعمة من البؤر المنحرفة في المجتمع المستهدف، وتؤدي الى أن يواجه أعضاء المجتمع بعضهم بعضاً من خلال إيجاد التصدعات في أجزاءٍ مختلفة في المجتمع وعبر اختلاف الاعتقادات والقيم وتشكيل سلوكيات جديدة. وهكذا تقوم الحرب الناعمة بضرب الانسجام

والاتحاد والوحدة الوطنية وتوفر بذلك الأرضية المناسبة لبروز الأزمات والتصارع الداخلي. بناءً على ما تقدّم، من آثار وخصائص الحرب الناعمة ضرب وتخريب الوحدة الوطنية.

10- تنتج الحرب الناعمة الشكّ. فالقاعدة الأساس في الحرب الناعمة هي إيجاد الشكّ والتشاؤم في الكثير من القضايا. إذ تبدأ الحركة في هذه الحرب بإشاعة الشكّ واليأس. وهكذا للنجاح في هذه الحرب، يتمّ إيجاد الشكّ في الاعتقادات والقيم من خلال الاعتماد على التراث ولكن بعد تجديده بشكلٍ دقيقٍ وهادئ. وتزداد هذه الشكوك مع مرور الوقت الى أن تؤدي الى حصول التغييرات الأساسية في تلك القيم والاعتقادات.

11- تستفيد الحرب الناعمة من أدوات ووسائل عصرية، حيث تتمّ الاستفادة من أكثر التقنيات تطوراً مثل الفضاء الافتراضي والسايري الذي يُعتبر البيئة الأصلية للحرب الناعمة، إذ يوفّر هذا الفضاء إمكانية الإغواء عبر عرض الكثير من الأمور الجاذبة وخلق السياقات اللازمة لإبراز العواطف والإحساسات.

أدوات وطرق الحرب الناعمة

لقد وسّعت الأبعاد المختلفة والميادين المتنوعة للحرب الناعمة من أدواتها وطرقها. مضافاً الى ذلك، أدت التكنولوجيا الحديثة الى ظهور تنوعٍ وتعقيدٍ في طرق وأساليب الحرب الناعمة. وتعتبر الأساليب الكلامية، والسلوكية والشبكية (الديجيتالية والالكترونية) أهم ثلاث طرق أصلية للحرب الناعمة وأكثرها تأثيراً. ويمكن ذكر العمليات النفسية، والعمليات الإدراكية، والديبلوماسية العامة والخداع التكتيكي ضمن مقولة الأساليب الأساسية الكلامية.

وتعتبر المعارضة، والعصيان المدني وعدم التعاون والاعتصام والتدخل غير العنفي وجذب المعارضين من جملة أهم الأساليب السلوكية.

أمّا من أهم الأساليب الشبكية وأكثرها تأثيراً، فيمكن الإشارة الى ثلاث مقولات : المنتوجات الثقافية، والإعلام والفضاء الافتراضي (تكنولوجيا الاتصالات الحديثة). وتدخل السينما والإنيميشن والأقمار الصناعية والالعاب الإلكترونية وغير الإلكترونية والموسيقى ضمن المنتوجات الثقافية. وتشمل وسائل الإعلام: المنشورات والإذاعة والتلفزيون ووكالات الأنباء. وفي العصر الحاضر، ينضوي تحت عنوان أدوات الحرب الناعمة في الفضاء الافتراضي ما يلي: الإنترنت (المواقع الخبرية، شبكات التواصل الاجتماعي، الإيميل و..)، والتلفون الخليوي (خدمة الخبز العاجل ، البلوتوث ، ونظام الرسائل).

إذا عرفنا الحرب الناعمة بأنها عملية تنافسية على التعبئة الاجتماعية بين الدولة والجماعات غير الحكومية، عندئذٍ فإنّ أيّ عنصرٍ يستطيع تقليل ميزان قدرة تعبئة الدولة لصالح الجماعات الساعية في تغيير النظام السياسي، يمكن اعتباره أداةً للإلغاء الناعم. النقطة الأساس فيما يخص أدوات الحرب الناعمة هي دور وموقعية كلّ من المتغيرات الأنفة الذكر في

مشروع الحرب الناعمة، حيث تتمتع المؤسسات الشعبية بأهمية أكبر في هذا المجال، إذ تعتبر المؤسسات غير الحكومية أفضل عنصرٍ في اكتساب قدرة التعبئة الاجتماعية والتغيير والتحول، لأنها تنشط في النظام السياسي الحاكم وتوسّع من نطاق أنشطتها دون أن تثير أية حساسية ضدها.

إذن، كخلاصة لما تقدّم يمكن الإشارة الى الأدوات التالية:

- 1- المؤسسات غير الحكومية المنسجمة؛
- 2- وسائل الإعلام (الإنترنت، الشبكات الفضائية، دور النشر)؛
- 3- النخب السياسية والاجتماعية والعلمية؛
- 4- القابليات المتضادة الموجودة في المجتمع (مثل الأقوام والأقليات الاجتماعية المختلفة)؛
- 5- النهضات الاجتماعية (مثل نهضة المساواة مع المرأة، نهضة الجامعيين،...)
- 6- المعارضة من خارج الحكم.

الخاتمة

عملنا في هذا المقال على دراسة ماهية، وأهداف، وأبعاد، وأدوات وخصائص الحرب الناعمة. وقد تمّت الإشارة الى أنّ الحرب الناعمة عبارة عن مجموعة التحولات التي تسعى الى قلب الهوية الثقافية والنماذج السلوكية المقبولة من قبل النظام السياسي. وتحقق الحرب الناعمة -"السيطرة الكاملة وعلى كافة الصعد"- في أبعادٍ ثلاثة: الحكومة، والاقتصاد والثقافة عن طريق استحالة النماذج السلوكية في هذه المجالات واستبدالها بنماذج سلوكية مضادة.

ولتشخيص الحرب الناعمة، تمّ تناول بعض خصائصها وصفاتها، ومن أهمها يمكن الإشارة الى أنّها تدريجية، غير محسوسة وهادئة، مبهمة ومعقدة، شمولية ويغلب فيها البعد الثقافي على سائر الأبعاد الأخرى.

وفي النهاية يمكن الإشارة الى بعض الإستراتيجيات والأساليب التي نستطيع اعتمادها في مواجهة الحرب الناعمة، مثل رفع مستوى البصيرة والمعرفة في المجتمع، وخصوصاً لدى شريحة الطلاب الجامعيين من خلال رفع مستوى قدرة التحليل لديهم، وتوفير فرص العمل، والثقة بالنفس وإيجاد جوٍّ من الأمل، ورفع مستوى البلد من الناحية العلمية، والاقتصادية والأمنية بحيث تصبح إمكانية الضرر به تُقارب الصفر، وإحياء الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في المجتمع، والدقة في اختيار السلع الواردة وبالخصوص الثقافية منها والتأكيد على دور ومكانة النخب.

